بسم الله الرحمن الرحيم

الإسراء الرسالي ركيزة المعراج الروحي

في السنة الثانية عشرة للمبعث الشريف وقبل عام واحد من الهجرة المباركة، كانت الجماعة المؤمنة بقيادة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم تواجه صنوف الأذى والاضطهاد والتنكيل، يُبطش بنسائها ورجالها وتُكال لهم تهم باطلة تستهدف إطفاء جذوة الرسالة ونورها البَرَّاق المخترق للنفوس والآفاق. كان مشهدا مؤلما وحارقا، حرقة شمس تلك الصحراء التي تحاصر المكان، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ازداد احتداما بموت السيدة خديجة رضي الله عنها وأبي طالب عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبموتهما فُقد السند والنصير الأرضي! ثم جاءت رحلة الطائف وما أسفرت عنه من صد وتماد مريع لأهل الباطل، أدت بسيد الأنام محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن يهيم على وجهه في قرن الثعالب وهو يضرع إلى الله بذلك الدعاء الذي يخلع القلوب:"اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس"! إن كلمات هذا الدعاء كافية بذاتها لتصوير الحالة التي كانت تمر بها الدعوة يومها.

إن أكثر الناس تفاؤلا لم يكن يمكنه أن يتوقع من تلك الفئة ولها أكثر من مضاء وصبر وثبات إلى حين، في درب احتف بالشهوات المتفلتة من كل قيد، تلهب سياطُها وسياطُ أكابر مجرميها ظهور الملتحقين بركب الدعوة. في ذلك الوقت حيث التعب والحلكة يملآن الأفق المغلق، أرسل الله البُراق لتفتح مساراته الآفاق على الأقصى في الأبعاد الرسالية والتزكوية! لقد كانت الجمهرة يومها تظن أن شمس الرسالة قد آذنت بالمغيب وأن ألسنة الشهوات ستبتلع الأتباع عما قريب، فجاء الإسراء وسط هذا كله، ليزرع في وعي السالكين وراء محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقينا هو الأقصى و الأقسى على قلوب الطغاة! إن الأفق غير منسد بل ها هو يتهاوى وينفلق بأصوات الموحدين الأول، وتطوى الأرض والمساحات كلها في بشارة صاعقة تحبس الأنفاس و تنزل بردا وسلاما كاد أن يطفئ الأتون كله ضربة واحدة!

وجاء المعراج وسط كل تلك الشهوات المستعرة يومها، ليزرع في وعي الأصحاب والأتباع، شوقا يلامس شغاف القلوب ويأخذ بها إلى الأقصى من منازل ومدارج السير إلى الله عز وجل!

لقد كانت الجاهلية يومها تتهيأ لأجل تشييع الرسالة والفئة المؤمنة بها! فجاءت حادثة الإسراء والمعراج لتعلن ميعادا قريبا لدفن الجاهلية ومنظومتها، وتبشر بولادة الأمة الوارثة لرسالة الأنبياء. إن الدروس المستفادة من تلك الحادثة كبيرة وضخمة وهائلة، وتكاد لا تنضب، ومن أهمها بإيجاز:

أولا: القضية الأساس هي الرسالة النازلة والأمة هي الوارث لتلك القضية، هذا ما تشير إليه بوضوح إمامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم للرسل عليهم السلام في بيت المقدس.

ثانيا: التزكية لا تتقدم الدعوة والعمل الرسالي كما قد يتوهم البعض، بل يأتيان معا منذ اللحظة الأولى، بل لا يفتح لك باب المعراج الروحي إلا أن تقصده من الخط الرسالي الدعوي! ولذلك كان الإسراء مرتكز المعراج و قاعدة انطلاقه! ولأجل هذا يقول تعالى:" قم فأنذر وربك فكبر" فبينهما تلازم، وأنت لا تنجح في التكبير ولا تفلح فيه إلا أن نكون منذرا مبلغا!

ثالثا: اليقين القاطع بوعد الله وانتصار رسالته وبلوغها الآفاق، حتى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين كما جاء في الحديث الصحيح. والدعاة في أمس الحاجة إلى إحياء هذا اليقين ورفده في كل وقت وحين وخصوصا في زمان الضعف والهوان.